تبادلها ، أو تجارة ، ترفعها عن هذا كله لتحملها بالله .. ممثلة فى عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان ، وتختفى فيها القوميات والأوطان ، ويتلاشى فيها الزمان والمكان . ولا تبقى إلا العروة الوثقى فى الله الخالق الديان .

ومن ثم يكيف هذا الأسلوب بأمن أساليب الدعوة التى قررتها الآية الكريمة فى مجادلة أهل الكتاب الا بالحسنى ، (لبيان حكمة مجىء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة ، والاقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر)(١) .

* * *

طبيعة الانسان وميله الى الجدل :

أخبر القرآن الكريم ـ كلام رب العالمين خالق الانسان والعليم به ـ أن الانسان جدلى بطبعه ، فدائما يثير الجدل حول كل ما يعرض له ، ويثار حوله وهذه حقيقة سجلها رب العزة فى كتابه بقوله :

« وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »(٢) .

وفى قوله عز وجل :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين »(٣) .

مع أن الله سبحانه خلق الانسان فى أحسن تقويم كما أخبر بذلك فى قوله :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »(٤) .

---

(١) المرجع السابق نفس المجلد ذات الصفحة .
(٢) سورة الكهف : (٥٤) .
(٣) سورة النحل : (٤) .
(٤) سورة التين : (٤) .

وكرمه ربه وخالقه أفضل تكريم حيث يقول سبحانه :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(١) ..

وكان هذا التكريم بما أودع فيه من نعمة العقل الذى به يستطيع أن يميز .. ويعمر الأرض على النحو الذى يحقق له خلافته فى هذه الأرض وعليها .. والتى من أجلها خلقه الله سبحانه حيث يقول مبينا ذلك :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة .. »(٢) .

ووجد الانسان نفسه أمام مشاهد الكون وحركته العجيبة ترد عليه الخواطر والأفكار ، والعلوم والمعارف .. وهنا يعقله يجد نفسه ، مدركا فاهما لبعضها ، عاجزا عن فهم وادراك الكثير منها ، ومن ثم وجد نفسه مدفوء حيلة وطبعا الى التعبير افصاحا وافضاء عما يريد فأخذه التفكير حينا بعد حين ، وكلما اشتد عليه ذلك تثور فيه ثائرة السؤال والحوار حول ما يعجز عنه من أفكار وآراء ، عند ذلك يجد نفسه متطلعا الى آراء الآخرين . فاذا ما اطلع على هذه الآراء .. فهو يقيم عليها الأدلة والبراهين . عند ذلك يجد نفسه اما موافق الآراء الغير مقتنع به .. واما يخالف ، وهنا تتشعب الآراء وتختلف الأفكار ، وتتعدد المذاهب(٣) .

وعند ذلك تتعدد المذاهب والأديان ، وهذا هو شأن الانسان الذى صوره وأخبر عنه القرآن الكريم :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم »(٤) .

---

(١) سورة الاسراء : (٧٠) .
(٢) سورة البقرة : (٣٠) .
(٣) الدعوة الاسلامية لتحقيق السعادة ج ٢ ص ٣٢٠ بتصرف .
(٤) سورة هود : (١١٨ — ١١٩) .

مما سبق يتضح أن الانسان جدلى بطبعه ، حيث يميل الى الجدل والرغبة فى الانتصار ، وكلما نزع الانسان الى تحكيم البيان والجدل فى فض المنازعات والخلافات كان أقرب الى السمو الانسانى مما لو نزع الى فضها الى القوة والسلاح ، ذلك لأن من الانسان من هو شموس لا يسلم زمامه الا لهواه ، فهو كثير الجدل .

وليس هناك ما هو أصعب مراسا منه(١) .. وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة فقال سبحانه :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين »(٢) .

الجدل عند العرب :

ولما كان حديثنا عن الجدل كأسلوب من أساليب الدعوة الى الله سبحانه كان لزاما علينا أن نعرف الجدل فى البيئة التى ظهرت فيها الدعوة الاسلامية والتى كانت مهبط الرسالة وموطن استقبالها الأول على رسولها الصلاة والسلام :

والجزيرة العربية — مهبط الوحى — جعلها الله سبحانه صورة مصغرة للعالم كله ، فكانت فى الجزيرة العربية ديانات كثيرة مختلفة .. واذا وجد الاختلاف كما سبق أن ذكرنا ظهر الجدل حول هذه الأمور المختلف فيها والمتنازع عليها ، وأظهر المجادلات وأبرزها فى الجزيرة العربية ما كان متعلقا بأمور العقيدة والدين .. ومن ذلك :

(أ) كان كثير منهم يشكون فى الوثنية التى كانت عقيدتهم وعقيدة آبائهم وكانوا كثيرا ما يعقدون المجالس من أجل الوصول الى الحق والدين الصحيح . ومن ذلك ما جاء فى كتب السيرة ، أن قريشا اجتمعت فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، وكان ذلك يوم عيد

---

(١) تذكرة الدعاة : ص ٣١ بتصرف : البهى الخولى .
(٢) سورة النحل : (٤) .

فى كل سنة ، فخلص منهم أربعة نفرتجيا ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض قالوا : أجل .. فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين أبيهم ابراهيم ، ما حجر نطوف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم »(١) .

(ب) ومما كان يجرى أيضا : أن النصارى كانوا يجادلون العرب لتنصيرهم ، والعرب كانوا يجادلون النصارى فى ذلك : ومن هـذا : « أن المنذر الثالث ملك الحيرة أراد الأساقفة أن ينصروه فكلمه أحـدهم وهـو صامت حتى دخل عليـه أحـد قواده وأسر له بشيء ، فظهرت على المنذر أمارات الحزن العميق ، فسأله الأسقف عما أصابه ؟ فأجاب المنذر : وأحسرتاه ؟ لقـد علمت أن رئيس الملائكة قـد مات ، فقال الأسقف : هـذا محال وقـد غشك من أخبرك فان الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء ، فأجابه المنذر على الفـور : أحق ما تقول ، وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت ، ؟؟(٢) .

(ج) لم يقف الأمر فى الجزيرة العربية عند ذلك الحـد من الجدل فى الأديان داخلها بل كان أهـل الجزيرة يرحلون خارجهـا حتى يتوصلوا الى العقيدة الصحيحة والدين الحق . ومن هـذه الصور أن زيد بن عمر بن نفيل رحل الى الشام يطلب دين ابراهيم ـ عليه السلام ـ ويسأل الأحبار والرهبـان حتى بلغ الموصل والعراق ثم أقبل فجال الشام كله .. حتى انتهى الى راهب من أرض البلقاء .. فسأله عن الحنيفية دين

(١) سيرة ابن هشام جا ص ٢٠٤ .
(٢) تاريخ الجدل : ص ٣٣ للامام محمد ابو زكرة ـ دار الكتـاب العـربى .

ابراهيم فقال له : انك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين ابراهيم فالحق بها فانه مبعوث ، وان هذا زمانه »(١) .

من هذا العرض يتبين لنا أن الجدل قد شق طريقه فى البيئة التى نشأت فيها الدعوة الاسلامية . وأن الجدل السائد فى تلك البيئة كان جدلا دينيا حيث كانت كل قبيلة تدين بعقيدة معينة ، وكانت كل قبيلة تجادل أختها فى دينها ، وهكذا كان الجدل فى الجزيرة العربية موجودا ، وقد نص القرآن الكريم الكثير من هذا الجدل مما يدعونا الى الحديث عنه فى القرآن الكريم كأسلوب من أساليب الدعوة الى الله تعالى لنقف على عظمته ونتخذ منه زادا لمسيرة الدعاة فى كل عصر .

الجدل القرآنى :

قال الله تعالى :

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »(٢) .

ذكرنا فيما سبق أن البيئة التى ظهرت فيها الدعوة الاسلامية وجد فيها الجدل فى الدين ، ولما كانت رسالة الاسلام هى الرسالة الخاتمة فكان لزاما أن يتضمن دستورها الرد على هؤلاء المجادلين وأن يرد على كل خصم بالحق والبرهان .

ولما كان الجدل آفة نفسية وعقلية معا ، والنشاط الذهنى للمجادل يمده حراك نفسى قلما يهدأ بسهولة ، وجماهير البشر لديها من أسباب الجدل ما يفوق الحصر . ذلك أنهم يرتبطون بما ألفوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٤ .
(٢) سورة الكهف : (٥٤) .

أنفسهم عليه من أديان ومذاهب ارتباطا شديدا .. لذلك وجدنا القرآن الكريم يتجه بأسلوبه الفريد يرد الصواب الى المجادلين جميعا وكأنه عرف ضائقة كل ذى ضيق ، وزلة كل ذى زلل ثم تكفل بازاحتها جميعا ، ذلك أنه لون حديثه للسامعين تلوينا يمزج بين ايقاظ العقل والضمير معا . ثم تابع سوقه متابعة ان أفلت الرد منها أولا لم يفلت آخرا .. وذلك هو تصريف الأمثال للناس ، حتى يملك القرآن زمام كل نفس ويأتى لها بعلاجها المناسب »(١) « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها .. »(٢) « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٣) ؟

وكما اتجه القرآن الكريم الى المجادلين . اتجه أيضا الى الداعية فحاول أن يروضه على تقبل الحقائق ، ويسبغ أفقه فى تقبل الوقائع ، ويبعده عن التكبر والكبرياء ، انه يحاول أن يلقى فى روع الداعية أن مهاجمة دعوته من قبل خصومها أمر طبيعى لابد منه فينبغى تقبله كما تتقبل الأمور الطبيعية ، فمهمة الداعية ليست الغلبة على خصمه لاشباع غريزة العظمة ـ بل اعانة الخصم على التحرر من رواسبه والأخذ بيده نحو السبيل المستقيم ليصبح صديقا له ورفيقا له فى رحلة الدعوة الى الله تعالى »(٤) .

ومن هنا نستطيع أن نفرق بين أسلوب الجدل القرآنى وأسلوب الجدل المنطقى فالمقصود من الجدل القرآنى براهينه وأدلته التى اشتمل عليها والتى ساقها لهداية المجادلين والمعاندين والزامهم فى جميع ما هدف اليه من المقاصد والأغراض التى يريد تحقيقها وترسيخها فى أذهان الناس ، فما من برهان ودلالة الا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين .

---

(١) نظرات القرآن ص ١٢٧ وما بعدها بتصرف .
(٢) سورة الزمر : (٢٣) .
(٣) سورة الملك : (١٤) .
(٤) أسلوب الدعوة فى القرآن الكريم ص ٥٥ : محمد حسين فضل الله .

أما الجـــدل المنطقى :

فهو قياس مؤلف من مقـــدمتين : احـــداهما أو كلتاهما مشهورة أو مسلمة عند الخصم فيسلمها المجيب ويبنى عليها الكلام ، والغرض منه الزام الخصم واقناع من هـــو قاصر عن درك البرهان »(١) .

وفى ذلك يقول المرحوم الشيخ عبد الغنى الراجحى « والواجب معرفته أن القرآن ملىء بالحجج والبراهين والجـــدال ، لكن القرآن مـــع ذلك كتاب معجز نزل بلسان عربى مبين لا يمكن أن يتأسى أو يتناسى الصورة التى يجب أن تتشكل بها براهينه وحججه وجـــدله هذه الصورة هى صورة القصص والبلاغة والاعجاز البيانى ، وهى صورة لا تتأتى بحال من الأحوال اذا اتبع فى حججه وبراهينه وجـــدله منطق اليونان وطرق الجـــدال عنـــدهم من ترتيب المقـــدمات والنتائج والأشـــكال والقياسات على هيئة أسوار خامة . فيكون بذلك كتابا يونانيا لا عربيا ، ويكون بذلك قد فقد ميزة الاعجاز والتحدى ، لأن هذه النظم المنطقية أشبه بالصنعة التى تتعلم .. ولا يرقى الى تعلمها الا القليلون . وقـــد يجر الاسترسال فيها الى سرعة هـــدمها ونقضها بأقـــل تشكيك فى سلامة بنائها فتستحيل الى جـــدل عقيم ومناقشات بيزنطية اثمها أكبر من نفعها ، ويصـــدق فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا غضب الله على قوم ضرب عليهم الجدل وقل عملهم وكثر كلامهم »(٢) .. وقوله عليه الصلاة والسلام : « ما ضل قوم بعـــد هـــدى كانوا عليه الا أوتوا الجـــدل »(٣) فالقرآن الكريم فى جـــدله ومناقشته للخصم انما يحتكم الى العقل والمنطق والحجة والبرهان لا على طريقة اليونان والرومان ولكن بطريقته التى يشع منها البيان ويتقبلها الانسان فى كل زمان ومكان .

---

(٢) تعليق على الرسالة الموضوعة فى آداب البحث ص ٣٧ .

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٦٩ / مذكـــرة فى علـــوم القرآن) ص ٧ — ٨ .

(٣) رواه ابن ماجـــه فى سننه جـ ١ ص ١٩ ، ٤٨ ، والترمذى تفسير ٤٣ ، مقـــدمة ٧/٥/٢٥٢/٢٥٦ .

ولذلك طالب القرآن الخصوم والمجادلين باقامة الحجة والبرهان ان كانوا صادقين قال تعالى :

« **قـل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** »(١) .

وقـوله سـبحانه :

« **قـل هل عندكم من علم فتخرجوه لنـا** »(٢) ؟ .

وقـد ذكر صاحب الاتقان فى علوم القرآن من أنواع الجـدل الاصـطلاحى :

« **السبر والتقسيم .. والانتقال والمناقضة .. والقول بالموجب .. ومجاراة الخصم** » وكلها أسلوب من الجـدل الاصطلاحى الذى سلكه القرآن الكريم فى الدعوة الى الله تعالى حيث ناقش المجادلين مناقشة تعتمد على كثير من المسلمات ، ومناقشتهم مناقشة عقلية حتى يصل بهم الى الطريق الصحيح .

أما **السبر والتقسيم** : فمثاله : قـوله تعالى :

« **ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليـه أرحام الأنثيين نبئونى بعـلم إن كنتم صـادقين** »(٣) .

فان الكفار لمـا حرموا ذكور الأنعام تارة واناثها أخرى ، وتحريمهم لمـا فى أرحام الاناث حسب ما اتفق عليه مرة ثالثة .. جادلهم الله فى رده عليهم « بطريق السبر والتقسيم » فبين أنه خلق من كل زوج مما ذكر .

ذكر وأنثى ، وسألهم عن أسباب التحريم وعلته .. لأن العـلة اما أن تكون بسبب الذكورة أو الأنوثة ، أو هما معا . أو بسبب خارج عن حـدود مصدر الشىء المحرم .. كأن ينزل به وحى من الله .

---

(١) سورة النحل : من الآية : (٦٤) .
(٢) سورة الأنعام : من الآية : (١٤٩) .
(٣) سورة الانعـام : (١٤٣) .

فتلك أسباب التحريم كلها ، ويترتب عليها أن يحرم الذكور جميعا ان كانت العلة هى الذكورة ، أو الاناث ان كانت القلة هى الانوثة .

او تحريم الصنفين معا ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة لان العلة على ما ذكر تقتضى اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى ، واذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال مبين »(١) .

وأما : **التسليم** : وهو أن يفرض المحال : اما منفيا أو مشروطا بحرف الامتناع ليكون المذكور ممتنع الوقوع ، لامتناع وقوع شرطه ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليا ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى :

« ما اتخذ الله ومن ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض »(٢) .

والمعنى ليس مع الله من اله ولو سلم أن معه اله لزم من ذلك التسليم ذهاب كل اله من الاثنين بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، فلا يتم فى العالم أمر ، ولا ينفذ حكم والواقع على خلاف ذلك .

وأما : الانتقال : وهو أن ينتقل المستدل الى استدلال غير الذى كان آخذا فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول كما جاء فى مجادلة الخليل ابراهيم عليه السلام للنمرود لما قال له : « ربى الذى يحيى ويميت : فقال النمرود : أنا أحيى وأميت . قال ابراهيم ان كنت كذلك : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » فانتقل به الى استدلال آخر فكانت النتيجة أن « بهت الذى كفر »(٣) .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ص ١٣٥ ، ١٣٦ — العلامة جلال الدين السيوطى .
(٢) سورة المؤمنون : (٩١) .
(٣) سورة البقرة : (٢٥٨) .

وأما : المناقضـــة : وهى تعليق أمر على مستحيل اشارة الى استحاله وقوعــه اذ المعلق على المحــال محــال مثل قــوله تعــالى : **« ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط »**(١) .

وأما : مجاراة الخصم : لا الى حــد التسليم بمدعاة ولكن لنقضه وابطاله ببيان أن مقــدمة كلامه د يؤدى الى ما أراد فكأنه يتعثر ولا يدرى ما يقول .. كقول الكفار لرسلهم : « ان أنتم الا بشر مثلنــا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا »(٢) .

تقول الرســل عليهم الســلام ردا عليهم « ان نحــن الا بشر مثلكم »(٣) . فيه اعتراف من الرسل بكونهم مقصرين على البشرية فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم ، وليس هــذا مرادا بل هو من مجاراة الخصم ليغــتر .

وأما : القول بالموجب : فهــو قسمان : الأول : أخــذ صــفة وقعت فى كلام الخصم ليرتب عليها حكما ، اسنادها الى غير من كانت لــه فى كلام الخصم مع بقاء حكمها : كقوله تعالى حكاية عن المنافقين

« لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل »(٤) .

فالأعز وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم اخراج المؤمنين من المدينة فأثبت فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهــو الله ورسوله والمؤمنون فكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل : لكن هم الأذل المخرج ، والله ورسوله الأعز المخرج .

أما الثانى : فهو حمل لفظ وقع من كلام الخصم على خلاف مراده ممــا يحتمله بذكر متعلق ومنه قوله تعالى :

---

(١) سورة الأعراف : (٤٠) .
(٢) سورة ابراهيم : (١٠) .
(٣) سورة ابراهيم (١١) .
(٤) سورة المنافقــون : (٨) .

« ومنهم الذين يؤذون النبى ويقـولون هـو أذن ·· قـل أذن خـير لـكم »(١) ، (٢) ·

وبهـذا الأسلوب سلك القرآن الكريم منهج الجـدل فى الدعوة الى الله تعالى ، واشتمل القرآن الكريم على كثير من أنواع الجـدل التى تفيد الدعوة فى حاضرها ومستقبلها كما أفادتها فى ماضيها ·

لأن جـدل القرآن لا يتجه الى الافحام المجرد ·· بل الى الاقناع والتوجيه ·· توجيه نظر المجادل الى الحقائق ·· كى يسير الدعاة على هـذا المنهج القـويم ·· ومن هنـا وجب أن نذكر بعضا من هـذه النمـاذج ·

---

(١) سورة التـوبة : (٦١) ·
(٢) الاتقان فى علوم القرآن ص ١٣٧ بايجاز ·

نمـاذج وصور للجـدل فى القرآن الكريم

اذا تدبرنا القرآن الكريم نجـد أنواعـا كثيرة من الجـدل .. ونكتفى بذكر بعض منها :

(أ) جـدال الأمم مـع رسلهم :

ان رسالات الله التى جاء الرسل الى أممهم تلتقى كلها فى عقيـدة واحـدة . فالالـه واحـد .. والدين واحـد .. قـال تعـالى : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين »**(١) .

« والانسان هـو الانسان فى كل عصر وزمان فى ميوله ورغباته ومشاعره واحساساته ، فهو كثير المراء والجـدل ، سريع الانتقـاص والعصيان ، وليس هناك أصعب مراسا من الانسان »(٢) لذلك لم يكن طريق العنف والشدة والغلظة هـو الطريق المتبع فى الدعوة الى الله تعالى ، ولكن السبيل الذى أمر الله رسله أن يسلكوه فى الدعوة اليـه انما هـو دائما : بالحكمة والموعظة الحسنة والجـدل بالتى هى أحسن قال تعالى : **« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »**(٣) فمـا من نبى ولا رسول الا دعا قومه بهـذا المنهج القـويم . ولذلك يقص الله علينا من أخبار الأنبياء والرسل عليهم السلام ما حصل بينهم وبين أقوامهم ..

فيحـدثنا القرآن الكريم عن نوح عليه السلام وموقفه مع قومه الذين عكفوا على عبادة الأصنام فبعث الله نوحا من بينهم يقول لهم : « يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره »(٤) ولكن القوم أصروا على عنادهم واستكبروا استكبارا وقالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم

---

(١) سورة الشورى : (١٣) .
(٢) تذكرة الدعاة : ص ٣١ .
(٣) سورة النحل : (١٢٥) .
(٤) سورة الاعراف : (٥٩) .

« لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سـواعا ولا يغوث ويعـوق ونسرا »(١) .

وعجبوا أن يكون الرسول من بينهم وهـو بشر مثلهم لا يتميز عليهم بغنى أو ثراء وقالوا له : « ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كـاذبين »(٢) .

فما كان من نوح عليه السلام الا أن رد عليهم بهـذا الرد الجميل المقنع : « يا قـوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمه من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون »(٣) ثم اجاب عليهم قائلا : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ،ولا أقـول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بمـا فى أنفسهم »(٤) فقـد ألزمهم بذلك الحجه والبرهان والزمهم الحق فليس فقدان هـذه الأمور مما يلزم تكذيبى ، والحال أنى لا أدرى شيئا من ذلك .. فعند ذلك قالوا : « يا نوح قـد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنـا بما تعـدنا ان كنت من الصادقين »(٥) .

* * *

أما ابراهيم عليه السلام : فقـد حكى القرآن الكريم مجادلته للنمرود وقـد تقـدم ذكرها(٦) .. كما حكى مجادلته لهؤلاء الذين كانوا يعبدون الأصنام حيث لجـأ الى هـذه الأصنام فكسرها وأبقى على كبيرها وطلب منهم أن يسألوه ان كان ينطق عما حصل لتلك الالهة :

---

(١) سورة نـوح : (٢٣) .
(٢) سورة هـود : (٢٧) .
(٣) سورة هـود : (٢٨) .
(٤) سورة هـود : (٣١) .
(٥) سورة هـود : (٣٢) .
(٦) عند الحـديث على انتقال المستدل الى استدلال آخر لعـدم فهم الخصم وجـه الدلالة من الأول .

اسألوا كبيرهم ان كانوا ينطقون ، وكأنه بذلك أراد أن يلزمهم الحجة وينطقهم بالحق ولذلك : رجعوا الى أنفسهم (فقالوا انكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)(١) .

وأما هؤلاء الذين كانوا يعبدون الكواكب فقد حاجهم ابراهيم وابطل عبادتهم واحدا واحدا حيث سار مع الخصم ليبطل ادعاءاتهم مبينا ان من شأن الاله أن يكون غير حادث أما وانكم لو نظرتم الى الهتكم الها بعد اله تستجدون وترون باعينكم وعقولكم أنها حادثة بدليل أنها تظهر ثم تختفى : انها تأتي وتغيب ويتغير حالها من حال الى حال وشأن الاله أنه لا يتغير ولا يتبدل ولا يتأثر وظل معهم حتى وصل الى الاله الأكبر وهو الشمس : قائلا لهم أنظروا (هذا أكبر) فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » وتلك كانت الحجة التى علمها الله تعالى لابراهيم عليه السلام ليلزم بها هؤلاء .. قال تعالى : **« وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك عليم حكيم »** .

سورة الأنعام (٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣)

(ب) جدال الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم :

لقد كثر الجدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جادله الكفار والمعاندون فى أمور كثيرة .. فقد جادلوه فى أمر البعث والحياة الآخرة وما فيها من حساب وجنة ونار وجاء أحدهم وهو أبى بن خلف بعظم قد رم وبلى وفتته بيده وقال : يا محمد أترى أن الله يحيى هذه العظام بعد أن رمت وبليت ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : نعم ويبعثك ويدخلك النار »(٢) ونزل فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) سورة الانبياء : (٦٤ ، ٦٥) .

(٢) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم : للامام الالوسى جـ ٢٣ ص ٥٣ .

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه .. قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(١) .

وقد أقام القرآن الكريم فى جداله لهؤلاء بالأدلة والبراهين على البعث بطرق عدة وأقيسة متغايرة .. منها :

١ ـ قياس الاعادة على الابتداء قياسا أوليا :

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »(٢) .

٢ ـ قياس الاعادة على الابتداء قياس مساواة قال تعالى :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(٣) .

٣ ـ قياس الاعادة قياسا تمثيليا على احياء الأرض بعد موتها كما فى قوله تعالى :

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير »(٤) .

٤ ـ قياس الاعادة على خلق النار من الشجر الأخضر بجامع القدرة على تبديل الأعراض فى كل وهو أشبه بأن يكون من قياس التمثيل او المساواة مثل قوله تعالى :

« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم »(٥) .

---

(١) سورة يس : (٧٨) .
(٢) سورة الروم : (٢٧) .
(٣) سورة يس : (٧٨) .
(٤) سورة الروم : (٥٠) .
(٥) سورة يس : (٨٠) .

٥ ــ قياس الاعادة على خلق السماوات والأرض بقاسا أوليا : مثل قــوله تعــالى :

» أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقــادر على ان يخلق مثلهم »(١) ، (٢) .

٦ ــ وأما سورة الحج ففيها خمس نتائج من مقــدمات عشر : وذلك فى قوله تعالى :

« وذلك بأن الله هــو الحق .. وأنه يحيى الموتى .. وأنه على كل شىء قــدير .. وأن الساعة آتية لا ريب فيها .. وأن الله يبعث من فى القبــور »(٣) .

فهــذه النتائج الخمس ذكرت بعــد مقــدما تسبقت عليهــا مباشرة وذلك فى قوله تعالى :

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة .. لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجــل مسمى ثم نخرجكم طفلا ــ ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعــد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها المــاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »(٤) .

فتلك براهين يقينية قطعية على امكان البعث وجوازه ، وأما تحقق الوقــوع فليس لــه الا أخبار الصادق الذى لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم الذى قامت المعجزة القاهرة على صــدقه وبهــذا أثبت

---

(١) سورة يس : (٨١) .
(٢) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ : العلامة جلال الدين الســيوطى .
(٣) سورة الحج : (٦) .
(٤) سورة الحج : (٥) .

أن البعث حق وصدق لابد منه فى يوم معلوم وفى هذا اليوم تجادل كل نفس عن نفسها ورد هذا فى قول الحق سبحانه « يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها » .. سورة النحل (١١١) .

ومعنى هذه المجادلة : الاعتذار بما لا يقبل منهم كقولهم :

« والله ربنا ما كنا مشركين » ..

الأنعام (٢٣)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد .. ويقول الروح : يا رب لم يكن لى يد أبطش بها ، ولا رجل أمشى عليها ، ولا عين أبصر بها .. فضعف عليه العذاب .

فيقول الجسد : يا رب أنت خلقتنى كالخشبة ليس لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى عليها ، ولا عين أبصر بها ، فجاء هذا الروح كشعاع النور .. فبه نطق لسانى ، وبه أبصرت عيناى ، وبه مشت رجلاى ، فيضرب الله لهم مثلا .. أعمى ومقعدا دخلا بستانا فيه ثمار .. فالأعمى لا يبصر الثمر ، والمقعد لا يتناوله .. فجعل الأعمى المقعد فأصابا الثمر فشملهما العذاب »(١) .

وفى اليوم الآخر كذلك يجادل أصحاب النار بعضهم بعضا .. قال تعالى :

« قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت آخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فئاتهم عذابا ضعفا من النار .. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون »(٢) .

---

(١) الفتوحات الالهية : العدمة سليمان بن عمر الشهيد بالجمل ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) سورة الاعراف : (٣٨) .

وقال سبحانه :

« وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد »(١) .

وقد جادل الكفار أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى — وجود الله عز وجل — كما أخبر القرآن الكريم بذلك فى قوله :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير »(٢) .

وقوله تعالى :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير »(٣) .

ولما كان وجود الله بديهة ينساب اليها العقل ، كما ينساب التيار الى قراره فان القرآن الكريم تصدى لهؤلاء المعاندين والمجادلين وساق لهم الأدلة والبراهين المختلفة والمتنوعة فتراه يكثر من الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق ويرشد الانسان الى النظر فى الكون »(٤) .. « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(٥) وما ذلك الا لأن قانون النظر هو قانون الاستدلال فى الأمور ، وقاضى الصدق ، وبرهان الشريعة ، وترجمان الأديان ، وحجة الأنبياء ، ومحجة الأولياء ، فبه يعرف الحق من الباطل ، والايمان من الكفر ، والناس من لدن آدم الى منقرض العالم اذا نزلت بهم ذلة يرجعون الى النظر والفكر ، ويقول بعضهم لبعض : « أنظروا وتفكروا فلولا أنه طريق واضح ومنهج لائح لما فزعوا اليه »(٦) .

---

(١) سورة غافر : (٤٧ ، ٤٨) .
(٢) سورة الحج : (٣ ، ٤) .
(٣) سورة الحج : (٨) .
(٤) نظرات فى القرآن ص ٧٨ : الشيخ محمد الغزالى .
(٥) سورة يونس : (١٠١) .
(٦) آيات الله الانسانية والكونية : د. سيد احمد المسير . ص ١٧ .

ومن هنا كان حديث القرآن الكريم بالأدلة الكونية على وجود الله ليشير الى ما يسميه ابن رشد بدليل العناية الالهية كقوله تعالى :

« ألم نجعل الأرض مهادا .. والجبال أوتادا .. وخلقناكم أزواجا .. وجعلنا نومكم سباتا .. وجعلنا الليل لباسا .. وجعلنا النهار معاشا .. وبنينا فوقكم سبعا شدادا .. وجعلنا سراجا وهاجا .. وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .. لنخرج به حبا ونباتا .. وجنات ألفافا »(١) .

فهذه الآيات وأمثالها دليل على عناية الله بالانسانية .. وهذه العناية هي الدليل على وجود الله الصنع الحكيم(٢) .

ومع هذه الدلائل الواضحة والآيات البينات على وجود الله .. الا ان البشرية تقسم بين الحين والحين في متناقضات عجيبة تصرح بشدة الجحود والانكار ، يزعم بعضهم أن العالم وجد صدفة ، وأن الحياة دبت فيه صدفة ، ولو قلت لأحدهم : ان طيارة تجمعت آلاتها ، ودارت محركاتها ، وصعدت في الجو ، بدون جهد من الانسان ولا تدخل أحد أبدا .. لنسبك الى الجنون والهزل »(٣) .

وصدق الله سبحانه :

« ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد »(٤) .

وقد أورد القرآن الكريم كثيرا من القصص الذي جاء بصور شتى من جدل المعاندين والجاحدين والمشركين ومن على شاكلتهم .. ونقد حجهم وأبطلها بما لا يدع مجالا لشبهة أو زعم .. وخاطب كل فريق بما يراه صالحا له ..

---

(١) سورة النبأ : الآيات من : (٦ ــ ١٦) .
(٢) الدعوة الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة : د. محمد رجب الشتيوي : ص ١٦٠ .
(٣) نظرات في القرآن مرجع سابق : ص ٧٨ .
(٤) سورة غافر : (٤) .

« إن هـذا لهـو القصص الحق ·· وما من إله إلا الله ·· وإن الله لهـو العزيز الحكيم »(١) ·

ومن هـذا العرض لبعض نماذج الجـدل فى القرآن الكريم ·· نرى أن القرآن الكريم قد سلك مع كل صنف بما يناسبه من ألوان الجـدل ·· تاييدا لرسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ·· ومعجزة خالدة باقية ·· وبهـذا المنهج القرانى يستطيع الداعية الناجح بما حباه الله من بصيرة نيرة ، وحجة بالغة أن يرسم الطريق الصحيح لدعوته ، وأن يضع لكل مقام مقال ، ولكل حجة بيان ، وأن يكون مثله الأعلى فى ذلك الداعية الأول : سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« وعلى الدعاة أن يبذلوا الجهـد المتواصل فى الدعوة الى الله ·· فالدعوة الى الحـق ركن أصيل من أصول الاسلام ، والنشاط فى هـذه الدعوة فريضة مستمرة فى كل زمان ومكان ، وبهـذا أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ان يبذل جهده فى التبليغ ·· فقال : « وجاهدهم به جهادا كبيرا »(٢) ·

وقـد فعل صلى الله عليه وسلم وقام بذلك على خير وجه وأكمله ·· وللدعاة فيه المثل والقـدرة وكذلك رتب الله سبحانه فلاح الأمـة ونجاحها وخيريتها على غيرها من الأمم ·· على اخلاص الدعاة الى الله ـ منها ـ فى الدعوة ، وأمرهم بالمعروف ·· ونهيهم عن المنكر : فقال سـبحانه :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ·· تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ·· »(٣) ·

وبين مكانة القـائمين بهـذه الدعـوة ومنزلتهم بقـوله :

---

(١) سورة آل عمران : (٦٢) ·
(٢) سورة الفرقان : (٥٢) ·
(٣) سورة آل عمران : (١٠٤) ·

«ومن أحسن قـولا ممـن دعـا إلى الله وعمـل صالحا وقال إننى من المسـلمين »(١) .

هـذا ..

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »(٢) .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهـديه الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

دكتور/ ابراهيم عبد الرحمـن عثلم
مدرس الدعوة والثقافة الاسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

---

(١) سورة فصلت : (٣٣) .
(٢) سورة هـود : جزء من الآية (٨٨) .